حول نظرية الالتزام

المسؤولية الذاتية

بقلم عبد العزيز حمدي

حينما طرحت قضية الالتزام في الادب ، كانت قضية الواقعية ما تزال في صراع عنيف مع المدارس الاخرى في شتى اشكالها ومناحيها ، منذ عصر النهضة حتى الحرب العالمية الاخيرة . ان شيئا ما ، قد رسخ وامسى ذا جذور عميقة مديدة ، لا يمكن استئصاله او القضاء على آثاره بسهولة ، لاسيما وان طبيعة الانسان وبيئته تتدخلان جذريا في تحديد نوعية التلقي ومن ثم التكيف والاعتقاد عند هذا الانسان . وهكذا ، فقد جاءت الحرب العالمية الثانية بنظرية الالتزام قبل ان ينتهي ذلك الصراع العنيف ، فواجه النقد تعقيدا هائلا . . . هناك ادباء لا يحيدون عن الكلاسيكية او الرومانسية ، وآخرون لا يزالون يستلهمون الطبيعة ، وثمة من يرى في الجنس علة كل مشكلة وحادثة في مهازل الانسان ومآسيه على السواء . . في الوقت نفسه الذي انتشرت فيه الواقعية انتشارا واسعا ، ساعد عليه وارث ناره الفقر والقتال الدموي بين البورجوازية والبروليتارية ، حتى بلغ التطرف فيها عند اغلب آخذيها وانصارها حدا ممجوجا اسف بالفن والادب ايما اسفاف .

ولكن كل تلك الاشكال او المذاهب لاقت لطمة قاسية ، مهينة اعظم مهانة ، في اعوام الحرب الاخيرة ، بما حملته للناس من قلق محزن ورعب وجودي ومصيري أخذ من الانسان الحديث كل مقومات التماسك في الشخصية وصنع منها لبانا يتسلى بمضغه ، فاذا بمحاجر المجانين تضيق بزحام نزلائها ، واذا بأوروبا كلها تتحول الى مستودع أمراض نفسية من نوع جديد جاهزة للتصدير الى القارات الاخرى . . . وفي غمرة هذا الرعب القاتم ، ومن خلال صراخ الانسانية الملتاع ، هب دعاة الالتزام ، وعلى رأسهم هذا العملاق الذي يدعى جان بول سارتر ، والذي بلور مفهومه ورسم خطوطه الاتجاهية باجتهاد واخلاص ، وبحرارة حقيقية ايضا . . .

ان زعيم الوجودية قرر ان المفكرين مسؤولون مسؤولية مباشرة عن خلاص العالم . . . هي ذي الفكرة الاساسية للنظرية برمتها .

لذا فانه من الطبيعي ان يكونوا مؤاخذين ، استنادا الى مسؤوليتهم ، وان لم يكونوا المجرمين او المسببين ـ على الاقل ـ لمآسي العالم وخاصة الحروب ، اذن عليهم ان يعملوا على اصلاح اخطاء العالم ، اخطاء الانسان . . . حقا ان هناك بورجوازية وبروليتارية ، حقا ان هناك هتلر وموسوليني وتشرشل وديغول وستالين ، حقا ان هناك بترولا وحديدا وفحما حلت محل الذهب والفضة والعاج والبهارات ، وحقا ـ في النهاية ـ ان هناك دما يهوديا في كل مكان ، بيد ان الفن والادب اكثر وجودا من كل ذلك . . الاديب والفنان هما القائدان الحقيقيان ، هما الموجهان الفعليان ، فاذا قيل ان الفنان او الاديب شاهد فلا يعني هذا مجرد المشاهدة العينية والتسجيل ـ كما تذهب الواقعية البحتة وفي أحسن اشكالها . . بل انه شاهد بمعنى انه حكم ، يستطيع وحده ، بما يملك من دقة الاحساس وبعد النظر وعمق الشعور والوعي ، وبالاضافة الى هذا الاحساس المفرط بالحرية والقبح والجمال ، يستطيع ان يقول كل شيء بصدق ، ان يكشف . . وهي ذي مهمته الحقيقية ، ان يكشف .

وهكذا ، فان الالتزام يعني ، كما هو واضح الآن ، وضع الملتزم تجاه العالم : أنت مسؤول . ولكن دعوني أقولها بطريقة أصح :

أنا مسؤول .

أجل ، فليس ثمة من يستطيع ان يفرض هذه المسؤولية علي سوى ضميري ، سواي انا أعني . . وبالتالي ليس ثمة من يستطيع ان يمد اصبعه الى صدري ليقول لي : أنت مسؤول . . اللهم سوى التاريخ !

انا مسؤول . . لا اردد ها صراحة . . لا والا كانت حياتي مأساة جحيميه لا احتملها ، أنا الفرد الصغير في عالم كبير يستطيع ان يسحقني ، وبالصدفة تصور ، تحت عجلة سيارة سكير في الطريق ، في كل لحظة . حقا ، فمن انا ؟

ان القضية اذن معقدة الى حد لا يتصور . . هذا صحيح . ولكن اليست هي ايضا أسهل بكثير مما نتصور ؟

اذا صرخنا في اذن انسان عادي : يجب ان تلتزم . . انك تعيش في عالم أنت مسؤول عنه ، لان وجوده نابع من وجودك ، ويجب ان تلتزم جميع قضاياه ، فلا تأكل الدجاج ـ مثلا ـ حينما يجب ان تأكل الحمص او الفول ، او آن تصنع سيارات ذرية بدلا من القنابل . . فلسوف يدهش ، ويتساءل ببساطة ان لم يتهمنا باختلال التوازن : وما شأني انا ؟ انا لا ابالي ما دمت أعيش (مثلا) . هنا تتعقد القضية وسوف نضطر الى بذل جهود جبارة في عرضها ، وقد لا نصل الى نتيجة غير الصداع في الرأس ان لم يكن اليأس .

اما انسان عظيم متميز ، يملك الصفات التي أشرنا اليها منذ قليل ، ومهما يكن فرديا ، فانه لا بد ان يحس بهذه المسؤولية في ذاته ، نابعة من ذاته ، دون تصميم ودون ما اقناع او توجيه من خارج هذه الذات . وهكذا ، فان التزام سارتر اصيل نابع من ذاته ، وكذلك ـ مثلا ـ هيمنغواي عندما شارك في ثورات الحرية ، في بلاد غير بلاده بقلمه وبندقيته على السواء . في هذه الحالة تبدو القضية في غاية البساطة .

انا انشأ في مجتمع يعني انني ابن هذا المجتمع لذا فان امره يهمني جدا ، لان قضيتي جزء من قضيته ، ولان مستقبله هو مستقبلي ، فهل استطيع القول : ما شأني به ؟ اذا رفضت مجتمعي ، لانه مليء بالعيوب ، لان ضغطه

علي مرهق ، فان هذا الرفض يتخذ احدى صورتين ، تبعا لحالتي :

١ ــ ان كنت واعيا ، كامل الادراك للحقيقة التي اشرت اليها ــ كوني ابن هذا المجتمع ومسؤوليتي عنه بالتالي ــ فان رفضي له سيكون رفضا عمليا محضا ، لا رفضا كليا ، اي انفصالا عاطفيا يجعلني غريبا عنه .. فانا رغم تميزي احمل هويته ، احمل كل سماته وتراثه ، انا من ثم لصيق به شديد الاتصال ، بل انا نفسيا لست سواه ... ان انفصالي عنه انفصال عن ذاتي ، عن نفسيتي ، ان انفصالي عنه جنون او انتحار ... وتلك هي الانهزامية بعينها .

٢ ــ اما اذا كانت حالتي الفكرية ــ الذهنية والنفسيه ــ على العكس من تلك الاولى ، فان رفضي سيكون رفضا كليا ومطلقا ، سانفصل عن مجتمعي واحيا في قوقعة آمال واحلام ، وفي سجن من النبذ ، منهزما ، فاي تافه اذن انا ؟

وما دمت على هذه التفاهة ، فلماذا ارفض ؟ ما فائدة رفضي ، بل ما الذي يدعوني الى الرفض اصلا ، في هذه الحاله ساكون مجرد سوفسطائي ، قد ابدع ، وقد اتي بنظرية ما ، وقد احرك فئة صغيرة من المجتمع ... بيد ان العدمية ستكون طابع كل ذلك .. مهما اكن عبقريا ــ من أنا ؟ افلاطون ؟ يقينا ان « الحرب والسلم » لافضل الف مرة من « المدينة الفاضلة » .

الرفض العقلي اذن ــ وعلى سبيل التاكيد لاهمية هذه النقطة في بحثنا هذا ــ ليس انفصالا ولا انهزاما ، لانه ليس رفضا للمجتمع في ذاته كما بينت ، وانما هو رفض لشكل طالح فاسد ، اتخذه هذا المجتمع نتيجة انحرافات تاريخية وتخثرت فكرية .. والان اصبح كل شيء واضحا لنقول :

ان الرفض ها هنا هو ثورة .

اجل هو هدم لهذا الشكل من اجل بناء شكل جديد صالح وجميل .

وانا حينما اتخذ هذا الموقف الرافض، الثوري، واعبر عنه بوسيلتي الخاصة ، الكتابه بالنسبة للاديب ، فانني اقرر حريتي في الحقيقة . اذ كيف اكون مسؤولا اذا لم اكن حرا ؟ بدون حرية لا املك حق الموافقة او الرفض اصلا ، وحتى اذا ملكت هذا الحق فانه يبقى عديم القيمة ما دام عديم الجدوى ، اذ لا جدوى بلا ممارسة فعلية ، بلا انتاج محسوس او ملموس للموقف الذي اتخذته . وهنا نواجه قضيه جديدة : الحرية شرط للالتزام الذاتي .. وان الحرية التي اعنيها هي الحرية الذاتية . فاذا ملكتها من البداية وكان رفضي ناتجا عنها فان الالتزام سوف ينبع بالضرورة من ذاتي ...

وهذه هي المسؤولية الذاتية ، الملزمة طبعا لا فرضا .

والان .. في وطننا العربي هذا .. هل فهمنا الالتزام على هذه الصورة التي حاولت ايضاحها ؟

لقد بدأت الدعوة الى الالتزام لدينا ، ان لم تخنني معلوماتي قليلا ، منذ عشر سنوات ، وكانت وظلت حتى اليوم تتخذ طابع القسر ، هكذا :

التزم !

و « التزم » فعل امر

والمفكر ، المبدع عامة ، لا يتلقى اوامر ... وفي ابسط صوره يمكن ان تكون مثلا اقول ان الموظف العادي لا بد ان يخضع للاوامر ، اما القاضي ، الشاهد الحكم ، فله امتيازات كثيره .. فهو حتى في تطبيقه للقانون يملك بعض الحرية .

هذا حال القاضي الموظف .. فما بالك بالاديب او الفنان الذي يطبق « الحريه » لا القانون ؟

لقد قلت ان الحرية شرط للالتزام ، وهذا ما عنيته بالضبط : ان لا يقسر المبدع على الالتزام . فانا منذ اللحظة التي اتخذ فيها موقفي الرافض اكون قد بدأت بالتعبير عن حريتي .. اذ ذاك تبدأ معاناتي الانسانية « الفرديه » بالدخول في صلب المجتمع ، فتتحول قضيتي الخاصة الى قضية عامة ، واذا انا لا اعاني حريتي فحسب وانما اعاني ايضا حرية البشرية جمعاء.. لان محاولتي التعبير عن حريتي ، والتي تجلت في رفضي الواعي لنمط او انماط معينة من السلوك الانساني الذي يحدد المجتمع ويحددني بالطبع ، محاولتي هذه رسم او ايحاء لانماط جديدة من السلوك في الحقيقة يجب ان تكون محققة لحريات الاخرين واهدافهم بقدر ما هي تحقيق لحريتي وهدفي ، وكي استطيع هذا التحقيق الشخصي ، فانا بحس المسؤولية النابع من ذاتي ، قد جعلت ، من غير تصميم مسبق ، شخصيتي جزءا من شخصية المجتمع العامة ، ومن ثم حريتي جزءا من حرية المجتمع ، فكل دفاع عن حريتي هو دفاع عن حرية المجتمع ، ان خوفي من اي شيء لا يتجاوز خوف الاخرين منه ، فنحن مرتبطون متشابكون .

واخيرا ، فان الالتزام مذهب فكري هو اقرب الى الظاهرة الانسانية منه الى المذهب السياسي او الاقتصادي. ولن يكون معقولا او انسانيا ان نصدر « قوانين قضائية » بالالتزام ينفذها رجال الشرطة ، اذ لا بد له ــ في هذه الحال ــ من ان ينتهي الى ما انتهت اليه « الواقعية » ؛ وبوادر هذه النهاية موجودة اليوم في بلادنا .. اقول : مع الاسف ؟

عبد العزيز هلال

صدر حديثا :

رسائل ثورة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب